محمد بن ربيع الغامدي

ثُمَّ لَنْ تَدْخُلوا الجنَّةَ

قصص قصيرة

الطبعة الأولى
2024

محمد بن ربيع الغامدي

ثم لن تدخلوا الجنة

قصص قصيرة

٢٠٢٤م

الطبعة الأولى

ح محمد ربيع الغامدي ، ١٤٤٥هـ

الغامدي ، محمد بن ربيع
ثم لن تدخلوا الجنة. / محمد بن ربيع الغامدي - ط١. .- الباحة ،
١٤٤٥هـ
٨٣ ص ؛ ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٥/١٨١٩٦
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٤-٩٨٠٠-٠

الأغلفة: الأستاذ مصطفى الدناصوري
تنسيق الصفحات: محمد بن ربيع

الطبعة الأولى
٢٠٢٤

حقوق الطبع للمؤلف

الإهداء

إلى باسل وديالا

التفاوض مع كلب عقور

أما لماذا التفاوض مع كلب عقور، فذلك لأنه يحتل جزءا مهما من حديقة منزلنا، هكذا أصبح الصباح ذات يوم فوجدته على مفترق طرق داخل الحديقة، وحيث أن المحتل لا يتأدب مع أحد، فإنه وما أن نقترب منه حتى يهب واقفا متوترا مشدودا متّقد العينين، يلتصق بطنه بظهره فاتحا فمه المؤثث بالمناشير وزَبَد الكراهية.

دخلتُ مع هذا المحتل الأثيم في مواجهات كثيرة، وقبل أن نبدأ النزال كنت ألوذ بالفرار. وهكذا في كل مواجهه، أقترب منه فأرى من ورائه محيطا من الأسنّة المشرعة فأتراجع. أدخل وجِلا وأوصد الباب من خلفي، تتلقاني زوجتي بسخريتها المريرة، وعتابها المُحبِط، فإذا حدثتها عن الأسنه أقسمت برب السماوات والأرض أنه لا أسنة ولا رماح مع الكلب أو من بين يديه أو من خلفه.

زوجتي يطوف عليها الأسبوع بكامله وهي تشحذ الهمم، هي مِسنٌّ وأنا سكين، وفي بعض لحظات الحماس تطلب الطلاق، وعندما تلوّح به كثيرا أشعر بأنني – إن طلقتها– سأكون بين جحيمين، جحيم الوحدة، وجحيم ذلك الكلب العقور، لذا أجنح إلى المهادنة، فاستعين عليها بالكلام المعسول وبعض الكذب المباح.

في لحظة ما، يزول تأثير العسل المصفّى، ويزول تأثير الكذب المباح، فتعود زوجتي للمِسنّ ثانية، تشحذ همتي وتضرب على فراشة ظهري إلى أن تنتزع المقاتل الذي في داخلي فيخرج، فإذا استوى واقفا نزلتُ للفناء بحثا عن الكلب العقور. وإذا جاء وجهي في وجهه، ونفذت عيناه الجمرتان في عينيّ، تراءت لي تلك الأسنة تسّدُ الأفق من خلفه.

مضى يوم يتبعه يوم، وشهر من ورائه شهر، تتابعت السنين حتى أكلت أعمارنا، نضحك بعين ونبكي بأخرى. زوجتي تسن السكين لتغرسها في ضميري، وأنا أفاوضها ليزول عني كابوسها، لا هي غرست السكين في نحر الكلب العقور ولا أنا فاوضته ليزول كابوسه عني.

وهكذا آمل أن تكون إجابتي كافية شافية لمن يسأل: لماذا التفاوض مع كلب عقور؟

خال وأرنبة ووجه محكم الإغلاق

ما رأيت أشدّ غِلظة من خال قد اختار مكانه فوق أرنبه، اختار مكانا جعل الأنف وصاحب الأنف يبدوان وكأنهما قد أحاطا بدواخلك، بأسرارك، بملفاتك، بكل ما يهمك أن تبعده عن عيون الناس. ولذلك فهو عندما نهرني بغلظة: "اخلع نعليك" بدا لي وكأنه قد قرأ في داخلي شيئا، أو كأنه قد بعثر سريرتي مثل هكر محترف بعثر خبايا السرّ ثم خبأه في سراديبه المظلمة.

خجلت لأن المكان يزدحم بالناس، فانكسرت، وعدت خطوتين للخلف، ثم خلعت حذائي ودخلت. دخلت وقد أحمرت وجنتاي وأنفي وحتى شحمتي أذني، ثم ألقيت بحطامي فوق أقرب مقعد وجلست. عَرِقَتْ راحتا يدي، فلما عرقتا عرفت أنه إيذان بزوال سحابة الخوف. اطمأن قلبي ودنوت من الجالس على يساري. سألته: من هذا؟.

ما أشد وقع جوابه على نفسي عندما قال هذا هو من سيتحكم في يومك وفي غدك، هذا هو المدير. هذه الإجابة كانت بمثابة عود ثقاب أشعل في نفسي أكثر من وسواس. فإن كان هذا هو المدير فمن هو ذلك الرجل الذي كنّا -أنا وكثيرون غيري- نعتقد أنه المدير؟

إن كان ذلك الرجل ليس هو المدير، فمن يكون؟ ولمن ذلك المكتب الفخم الذي يجلس عليه؟ وأين يجلس هذا الذي عرفت الان أنه هو المدير؟ هذه هي أول مرة أراه فأين كان يختبئ، ثم لماذا كل هذا ونحن في مدرسة ابتدائية صغيرة الحجم نائية الموقع؟

وضعت وساوسي جميعها تحت قدميّ ونهضت من مكاني ثم اندفعت نحو هذا المدير الذي عرفته الان لأول مرّة. قبلت رأسه ويده وقبلت ذلك الخال الغليظ فوق ارنبته ثم ارتجلت خطابا.

ارتجلت خطابا – وأنا أدرك كم أكون بحاجة للكلام عندما يصبح جناني أرقّ من جنان طير تكاثر عليه مطاردوه– فقلت: لقد خلق الله أهل العقول لهداية قليلي العقول، وأنا لقلّة عقلي دخلت إلى مكتبكم دخولا لا يليق، لكنك أوقفتني عند حدود عقلي فلا حرمني الله من عينك الساهرة ولا حرم الله الناس من نظراتك الثاقبة.

اصطفت عيناه على خط أفقي وهو يحدق في وجهي من وراء الخال والأرنبه، بينما تيبس بصري وبصيرتي فوق ذات الخال وذات الأرنبه، وقبل أن استعيد نفسي نهرني ثانية: عد الى مقعدك، ثم أردف: أنت الان في ما يشبه المنافسة مع هؤلاء جميعا.

وللحقيقة فإن كلمة هؤلاء قد خرجت من فمه وأمسكت بأذني وأدارت رأسي في حركة دائرية أفقيه وكأنني أرى هؤلاء جميعا للمرة الأولى.

أحمرت وجنتاي وأنفي وحتى شحمتي أذني فعدت حتى ألقيت بحطامي فوق مقعدي. وعندما عرقت راحتا يدي دنوت من الجالس على يميني، لقد عقدت العزم على اغتياب هذا المدير الطاغية، ولا مناص من صبّها في أذن جاري غيبة لا تبقي ولا تذر فالاغتياب سلاح المقهورين إزاء هذه الوجوه الجرانيتية القاحلة.

ما إن قلت لجاري ما قلت حتى تمعّر وجهه واضطرب. شرع يقسو عليّ. كان يشتمني وعيناه مثل بوصلة شمالها خال المدير، تعمد أن يعيد مقاطع من كلامي، كلماتي التي اغتبت فيها المدير ذا الخال والأرنبة، يعيدها بصوت يزداد قوة كلما بانت له مني لحظة وجل. جاري يتحدث بصوت مرتفع والمدير يرمقنا من وراء خاله المتربع فوق أرنبته وأنا لثّة صفراء تتبعثر في عيون الحاضرين.

ضوء في آخر نفق الزهايمر

كلُّ سلالم البيت الرخامية غسلناها بماء الورد والكادي، حتى السلالم التي لن تطأها أقدام الضيف غسلناها وعطّرناها، البيت كله ابتسامة ناصعة البياض في وجه القادم وفي حقيبته الملايين. كنّا نصب ماء الورد صبّا على الرخام، وكانت تعليمات أخي المهندس(كما هي شهرته لدى العائلة) تُصَبُّ صبّا في كل أذن، فهو الآمر الناهي هنا رغم أنه الرجل الثالث في بيتنا الواسع.

نقلنا الخدم والأطفال إلى الجناح الغربي من البيت واختلفنا حول أبي. اقترح المهندس أن يكون أبونا مع البقية في الجناح الغربي، ورغم اعتراض الشاعر(كما هي شهرة أخينا الأكبر) إلا أن المهندس قد تصدى له فكان ما أراد.

لم يكن إبعاد أبي عن هذه المناسبة أمرا هيّنا، كان مثل كأس من السم نتجرعه، يصبه أخي المهندس في حلوقنا بلا هواده، ومع ذلك فقد سلمنا له أمرنا بالكامل، ورضينا أن يواجه أبونا هذا القدر القاسي جدا.

ران علينا صمت مثل صمت أهل القبور. سيطرت علينا قناعة مؤلمة بأن هذا الأب الذي تقدمت به السن حتى أدخلته قفص الزهايمر لم يعد ذلك الرجل القوي، لم يعد رجل البيت الأول الذي يكفيه أن يدير البيت بإيماءاته فقط، بل ولم يعد يتحكم حتى في جوارحه، ومن العقل والحكمة أن يكون بعيدا في صباح الملايين الذي سوف يشرق علينا في يوم غد.

في محاولة أخيرة ؟أرادت "مهرة" ابنة أخي أن تثني المهندس عن هذه الفكرة غير أنها لم تنجح. وللحق فقد انصتَ لها باهتمام بالغ، أشاد بها وأشاد

بتفوقها في الشعر حتى على أبيها الشاعر، لكنه توسل إليها ألا تأخذها عواطف الشعر بعيدا عن محطات العقل.

عندما انفض السامر وذهب كل واحد منا في طريق، اخترتُ قضاء بعض الوقت في مكتبة العائلة، وما كدتُ أستقر حتى وصلتني رسالة من مهرة على تطبيق واتس أب.

كتبتْ لي: عمي! عندي إحساس يقول أنك الآن في المكتبة. هل في مقدوري الحضور إليك الآن؟ لن آتي للمكتبة من أجل القراءة، سوف آتي لبعض الحديث إن كان لديك متسع من الوقت.

جاءت مهرة، أو "الشاعرة بنت الشاعر" كما تسميها أمي، جلست على جزء من طاولة القراءة ليس عنّي ببعيد. قالت لي: هل يرضيك يا عمّي ما يحدث لجدّي؟.

كان عليّ أن أفكر في الإجابة جيد إذ لا وقت للمزايدة الآن. قلت لها: مهره يا بنيتي! جدك هذا قبل أن يكون جدّا لك هو أبي، وقبل أن يكون أبا لي كان أبا لعمّك المهندس، وقبل أن يكون أبا لعمّك المهندس كان أبا لأبيك.

قاطعتني مهرة لتعتذر، قالت أنها لم تكن لتزايد علينا نحن أبناؤه، لكن إبعاده بهذه الصورة فيها الكثير مما يحزّ في النفس، وإلا فهي تدرك أنه والدنا نحن الثلاثة قبل أن يكون جدّا لها.

قلت لها: وأنا ما قلت لك ذلك رفضا لاهتمامك بجدك. أنت شاعرة، وقبل ذلك أنت إنسانة، وإنسانة عظيمة أيضا. إنّ ذات القربى' والشعر، وفطرتك الإنسانية، لتدفع بك للاهتمام بجدك.

هذه نوازع الحق والخير تتحرك في نفسك، وكما هي مغروسة فيك هي أيضا مغروسة في وجداني وفي وجدان أبيك وأجزم أنها مغروسة أيضا في وجدان عمك المهندس، لكن – وكما توسل إليك ألا تأخذكِ عواطف الشعر بعيدا عن محطات العقل – فإني أتوسل إليك أيضا أن تضعي الموقف برمّته تحت موازين عقلك.

مضى من الليل زُلفة، تجاذبت فيها مع ابنة أخي (الشاعرة بنت الشاعر) أحاديث شتى، وإن كان محورها الرئيس هذه القضية التي تشغل أسرتنا منذ الصباح، وما تفرع منها من أحداث خاصة ما يتعلق بحالة أبي، وقد انصرفت مهرة ابنة أخي ثم انصرفتُ وبيني وبينها هدف واحد وخطة عمل واحدة.

منذ ساعات النهار الأولى وبيتنا يضطرم بمن فيه، قمنا بنقل الأطفال والنساء إلى الجناح الغربي من قصرنا العامر. أوكلنا مهمة نقل أبينا إلى أخينا الأكبر سنا، الشاعر المتشاغل بشعره المنشغل به عن كل شيء. تمت المهمة بسلام وأبي المتلحف بالزهايمر يتأمل كل الأشياء لكنه لا يتحدث عن شيء مما يتأمل.

كان أخونا المهندس يلوب حجرات القصر، يتفحص كل شيء، يتابع الاستعدادات، ينثر التوجيهات والملاحظات، يتفقد، ويدقق، ويسأل. قال لنا وقد صادف تواجدنا جميعا في مدخل الصالون: انتبهوا جيدا. نادوه بقولكم سعادة الوجيه، إياكم والارتهان لأزمنة مضت فهو لم يعد بائع المساويك كما كان، ولم يعد يناسبه نداء يا عم حسان فانتبهوا.

أخونا المهندس هو أيضا وجيه من وجهاء المدينة، وقد بات رجل بيتنا الأول رغم أنه الثالث من ناحية السن بعد أبينا وبعد أخينا الشاعر، لكن

الزهايمر قد أبعد أبي، والشعر قد شغل أخي، وقوة شخصية أخينا المهندس قد جاءت به إلى المقدمة ولا غرابة في ذلك فقد كان أبي يسميه "وجه الأسد"!

اقتربت ساعة الصفر، أو اقترب بيتنا منها. لا أدري على وجه الدقه، هذه الاستعدادات وهذه التوجيهات قد أربكت بوصلتي كثيرا، ومع ذلك فالدقائق تتسارع زحفا نحو الموعد المنتظر، وجميعنا وجوه تقاوم العبوس لنبدو أكثر بهجة ونحن نستقبل ضيفنا الكبير.

وصلت رسالة لأخي المهندس عبر الواتس أب انفرجت معها أساريره، وسرعان ما أدركنا أن الضيف ورفاقه في طريقهم إلينا. أغلق المهندس هاتفه الجوال، أودعه جيبه الأيمن وبدأ يصفق بيديه يحثنا على الاصطفاف.

قام بترتيب وقوفنا في مدخل القصر، أخونا الشاعر أولا، يليه عمنا الأصغر سنا من أبي، ثم خالي الأكبر وبجواره اثنين من أبنائه، ثم ثلاثة من أبناء عمّي جميعهم أكبر مني سنّا، ثم أنا في آخر الصف فأنا أصغرهم على الإطلاق، بينما كان هو طليقا يتحرك من أعلى الصف إلى أسفله!

عندما أطل علينا سعادة الوجيه ورفاقه كانوا سبعة، أما نحن فكنا ثمانية والمهندس تاسعنا أو تسعة والمهندس عاشرنا. كانت ابتساماتنا متشابهة متطابقة تماما رغم فوارق الأوزان، لكننا جميعنا متمسكون بها، مصرون عليها، ويبدو أن لسعادة الوجيه وجه أسد أيضا.

في الطريق إلى صالون الاستقبال لم نكن نسمع سوى قهقهات سعادة الوجيه وأخي المهندس، قهقهات تبدو متفلته لكنها كانت تجلجل في فضاءات المكان، وما كنت أدرك فيم يتضاحكان غير أن هذا لم يمنعني من المشاركة

أحيانا، ويبدو أننا جميعا كنا نسايرهم مثل جوقة تسد فراغات ما في مشهد ما.

في الصالون دار حديث بين سعادة الوجيه وبين أخينا الأكبر، أو أخينا الشاعر. لقد ظهر أن الوجيه على معرفة عميقة بإبداعات أخي، أو لربما اطلع عليها خصيصا لهذا اللقاء، لكنه – للحق– ظهر مثل ناقد حصيف متخصص وهو يراجع مع أخي بعض أبيات من قصائده.

كانت لأخينا الثاني، أو أخينا المهندس مداخلات بينهما أشاد في بعضها بمهرة (الشاعرة بنت الشاعر) وكنت أقول في داخلي: لو كان المهندس شجاعا لجعلها على رأس الحاضرين، لكنه كان يدرك أنها لو حضرت فلن يتم الاتفاق بينه وبين سعادة الوجيه.

انتقلت الجلسة إلى صلب الموضوع. أخرج خالي ملفين من حقيبة سوداء ووضعهما على منضدة في طرف الصالون. وضع ملفا إلى يمين المنضدة ووضع الآخر إلى يسارها. لقد أذهلني خالي الذي كان يتصرف وكأنه أمين سرّ لهذا الاتفاق أو كأنه سكرتير حاذق على الأقل، رغم أنه يظهر في كل حركاته وسكناته أقرب إلى العوام منه إلى أي فئات أخرى.

بعد أن رتب خالنا الملفات أخرج من الحقيبة نفسها مغلفا ووضعه في منتصف المكتب ثم جلس وبدأ يرتجل كلمة. طلب من المهندس أن يتلطف بالجلوس على المكتب إلى اليسار منه، وطلب من الوجيه أن يتلطف بالجلوس على المكتب نفسه ولكن إلى اليمين منه.

عندما استقر الرجلان كل في موقعه بدأ خالي يقرأ من ورقة، ظهر لي من مفرداتها أن كاتبها قد اتبع الأساليب القديمة في كتابة الوثائق: "يعلم من

يراه ويفهم من قراه، أنه قد تم الاتفاق على أن يقوم فلان وكيلا عن ورثة فلان ببيع الأرض العائدة لأبيهم والبالغ ذرعها كذا وكذا على فلان بثمن جرى عليه الرضا والاتفاق وقدره كذا وكذا".

كان المشهد صادما. لي على الأقل، فأي وكالة تلك التي منحناها لأخينا المهندس، ومن قال أننا ورثة ووالدنا على قيد الحياة ؟ أم أنهم قد ساووا بين الزهايمر وبين الموت؟ وما هذا المبلغ الخرافي الذي دفعه الوجيه ثمنا لأرضنا؟ نعم هي أرض واسعة ومستوية وذات موقع حسن ولكن هذا المبلغ يعد رقما فلكيا بصدق.

انتظرت من خالي أو من أخي المهندس أن ينادي عليّ وعلى الشاعر لنوقع على صحة البيع باعتبارنا شركاء في الإرث الذي لم يمت مالكه بعد، لكن شيئا من ذلك لم يحدث، والحمد لله أنه لم يحدث، فقد كنت سأرتكب إثما بالتوقيع، أو سأفتح جبهة في غير وقتها مع أخي وصديقه الوجيه.

وقّع أخي المهندس على الوثيقة التي أمامه، ووقع الوجيه على الوثيقة التي أمامه. نهض الثلاثة فلما استووا وقوفا تناول خالي نسخة الوثيقة من أخي المهندس وأعطاها لسعادة الوجيه وهي تحمل توقيع أخي، ثم أخذ نسخة الوثيقة التي تحمل توقيع الوجيه وأعطاها لأخي.

تكلم المهندس بصوت جهوري فأكد البيع، وأذن للمشتري أن ينزل إلى الأرض وأن يتحرك فيها كيف يشاء وفي أي وقت شاء. وطلب مني ومن أخي الشاعر أن نحمي ملكية الوجيه للأرض فقد دخل المبلغ في حساب العائلة وباتت الأرض تحت أمره وطوع يده، ثم صافح البائع المشتري، نفض يده بحرارة ودعانا جميعا لتناول وجبة الغداء.

انتهينا من الطعام ثم استأذنت الضيف وأخي وذهبت مهدودا مكسورا إلى جناحي الخاص، نسيت أن زوجتي وأولادي محتجزون في الجناح الغربي من القصر، كنت أفكر فقط في أبي. هل سيدرك ما حدث؟ هل سيبرر زهايمر أبي جرأتنا هذه؟ كيف ابتلعنا هذا الثقب الأسود وكيف سنخرج منه؟

التعب والإرهاق وما يحتشد في داخلي من الحزن والجزع قد أسلمني إلى حالة من الوجوم، وباتت عيناي شاخصتين يذوي نورهما شيئا فشيئا بيني وبين سقف الغرفة. دخلت في إغفاءة، ولعلها امتدت لساعتين أخرجني منها جلبة وضجيج في الخارج. أصخت السمع قليلا وقبل أن اتبين شيئا وصلتني رسالة على هاتفي الجوال.

الرسالة من مهرة (الشاعرة بنت الشاعر) وهي تقول: جدّي شاهد غرباء في مزرعته فتناول العصا وخرج اليهم، أدركه يا عمي قبل أن يصيبه ضرر. قفزت مذعورا وتوجهت نحو الباب الذي يطل على المزرعة، وفتحته على عجل ثم استويت واقفا وجها لوجه أمام ميدان المنازلة مباشرة.

نزلت إلى أرض المواجهه. كان المشهد يتكون من صف أمامي يشغله مرافقو الوجيه، بينما كان هو يقف بعيدا إلى الخلف منهم، وكان أبي يواجه الصف متكئا على عصاه على مسافة تقارب الأمتار العشرة. مشيت وئيدا حتى وقفت خلف أبي الذي لم يشعر بوجودي.

يبدو أن مشادة كلامية قد حدثت قبل مجيئي، ويبدو أن الوجيه قد سرّه نزولي إلى أرض المنازلة. لذلك بادر إلى محاولة إشراكي معه فأكد على

شهادتي للبيع، لكني رغبت في سحب مركبة الخلاف إلى داخل البيت فقلت له: تفضل بالعودة إلى حيث المهندس وهناك تجد الحسم.

احتد سعادة الوجيه في رده على دعوتي السلمية. قال لي أن علاقته بالمهندس قد انتهت منذ وقّعا على وثيقة البيع، ثم نشر الوثيقة في يده متعمدا أن يراها أبي. قال لي بغلظة: هذه أرضي وقد اشتريتها بالملايين لتكون مكبّا لنفايات مصانعي القريبة من هنا، ثم صعّد من غلظته ليقول: خذ أباك الخرف فلم يعد له أرض هنا.

تكلم أبي بتركيز فاجأني قائلا: أنا إن كنت مخرّفا فأنت لص، أنت غريب عن هذه الأرض، أنظر إليها جيدا، حدق في ترابها لترى خطى أجدادي فوقها، ثم أعد النظر لترى خطاي عليها ولن أدعك تلوّث خطاي وخطى أجدادي مهما كانت قوتك.

قال الوجيه متهكما: خطاك وخطى أجدادك لن تصمد ثانية واحدة أمام هذه الوثيقة، وهنا كانت المفاجأة . مهره (الشاعرة بنت الشاعر) التي لا أدري كيف التحقت بنا في أرض النزال لكنها كانت تلوح بورقة في يدها. قالت بصلابة أنثى عظيمة: هذه مذكرة من النيابة العامة، عليك أن تراجع المحكمة للتحقق من صحة البيع.

رد عليها: نعم سأذهب إلى المحكمة، وإلى ما هو أعلى من المحكمة، فهذه وثيقة صحيحة صريحة في يدي. قالت له بهدوء عجيب: بل خذ أموالك من عمّي المهندس، لقد باع لك مالا يملك ودون تفويض من المالك، فاختصر المشقة على نفسك يا سيدي.

خبط الأرض بقدمه محتدا. قال لها بغلظته المعهودة: لكن المالك مريض، المالك بلا ذاكرة. قلت له: أبي بلا ذاكرة فلا تكن أنت بلا تهذيب. قالت مهرة(الشاعرة بنت الشاعر) نعم يا سعادة الوجيه، جدي يمر بحالة زهايمر، نسي كل شيء، نسي أبناءه وأحفاده، كل الذين كان يعرفهم قد غادروا ذاكرته، لكن خُطى آبائه على أديم هذه الأرض لم تغادر ذاكرته، أبدا لم تغادر. الزهايمر يا سعادة الوجيه يمحو كل شيء إلا خُطى الأجداد، يقبل كل شيء إلا أن تلوث أرضا طاهرة.

تطورات مؤسفة في صالون حلاقة

هذا صالون" أربعة كراسي" يأتيه الناس من أرجاء المدينة ومن القرى المجاورة، ومع ذلك فقد خلا اليوم من زبائنه على غير عادته، وإذ وجدته خاليا فقد دلفت إليه وبسرعة.

سلّمت فقط (دون مزاح هذه المرّة) ومع ذلك قدّموا لي كرسيّا استويت عليه جالسا، وعندما استويت ذكّرتُ برغبتي القديمة التي لم تتحقق، موديل بوريس جونسون، ثم حلّفتهم ألا ينسوا.

ضحك الحلاقون الأربعة سوياً غير أن الذي استلم رأسي اقترب ليقول كلاما كثيرا عن السوق الأوروبية المشتركة والبريكست وتيريزا ماي وكارثية الرجل على بلاده.

أبعدتُ مقصه وقلت له: عن شَعْره أحدثك وليس عن سياسته. تدخل زميله قائلا: لكنه غير محبوب. هنا أخرجت هاتفي وأطلعته على صورة بوريس جونسون وقلت بحزم: أريد غُرّة مثل هذه، إنها تبدو جميلة جمال حفنة عشب يابس طوحت بها ريح على صخر، لا شأن لي بسياسته ولا دينه ولا سلوكه.

كان الحلاق يدقق في الصورة وأنا أرصد ملامحه في المرآة، فلما انفرجت أساريره وانفرجت أساريري؛ قال بلغته: ناهيه! وطفق يشرح لي خطته، تارة يشير للجانب الأيمن من رأسي وتارة للجانب الأيسر، وأنا أنوع بين عبارات الاستحسان، تارة: طيب، وتارة أوكيه، ومرة تمام، ومرة قود ومرة ناهيه.

توقف فجأة وانهمك يرد على مكالمة، رميت نظرة على المرآة أمامي فرأيته ممتقعا، وعندما تكلم التف حوله زملاؤه والحزن باد على وجوههم أما هو فقد سلّم المقص لزميله وغادر، وبينما انهمك زميله في حلاقة رأسي فقد عاد

البقية إلى مقاعدهم دون تلك الابتسامات اللطاف التي كثيرا ما توضّعت على شفاههم.

توقف الحلاق واضعا قبضته والمقص على كتفي ليقول لي متهدجا: لقد ماتت أمه. وللحق فقد تألمت كثيرا، ونصحته بإغلاق الصالون، فمن العيب أن نستمر والحالة هكذا. غير أنه لم يجد وجاهة فيما قلت، قال لي لو أغلقنا الصالون فلن نرد له أمه، ثم أكّد رأيه بسؤال: لو أغلقنا الصالون فماذا سنستفيد؟

عدّل وضعية رأسي بسبابتيه، زمّ شفتيه، تمقل الغرّة والجانبين وأنا أتابعه عبر المرآة. سألني: أين الصورة؟ فأخرجتها له. قال لي أن زميله قد أخطأ في فهم الفكرة وسوف يقوم بتصويب الخطأ، قلت له: أنت الحلاق لا أنا. ويبدو أن كلامي قد أحرجه لذلك أكد لي – بخجل شديد–إدراكه لصواب خطته وإنه عندما سأل إنما فعل ذلك ليضعني في الصورة.

رأيت بعيني تدميرا تاما لما كان جميلا قبل ثوان، تغيرت الفكرة تماما، لكنه هو الحلاق ولست أنا على كل حال، لذلك لم أنبس ببنت شفه بينما استمر في تجريف شعري تجريفا أعطى رأسي استطالة عجيبة.

عنّ لي أن أذكره بموديل بوريس جونسون، وقبل أن أفعل رن هاتفه النقّال. قلت في نفسي ماتت أمه أيضا؟ هل أنا وجه شؤم على هذا الصالون؟ كنت أوسوس في صدري وفي الوقت نفسه أراقب الرجل على صفحة المرآة. لا بد أن شيئا قد حدث، فالحلاقون لا يعيرون هواتفهم اهتماما إلا في أحلك الظروف.

كانت ملامحه محايدة، لكنها تغيرت قليلا نحو الحزن وهو يسلم المقص لزميله. أما ملامح زميله وهو يقترب، فقد بدا عليها الأسى والحزن. غادر الحلاق الثاني بينما أصبحت رأسي بين يدي حلاق ثالث، وأنا على الكرسي نفسه أتساءل: أفي صحو أنا أم في منام؟

رفعت بصري نحو المرآة فوجدت العمل يجري على خير ما يرام ولذلك سألت: الحلاق الأول ماتت أمه فما الذي حدث للثاني؟

نظر إلى رفيقه الذي بقي وحيدا على مقاعد الانتظار، تراطن معه ثم قال: الأول ماتت أمه في الهند، ولأن السفر غير ممكن الآن فقد ذهب الى السكن، ثم استدعى الثاني ليؤنسه. قلت: رحم الله أمه ثم واصلت مواسيا: أمه في الجنه الآن.

في هذه اللحظة دخلت هذه الميلودراما فصلا جديدا، بدأ الرجل ينتقد بشدة عمل زميليه. قال كلاما كثيرا بلغات مختلطة، وأنا في ذلك جاهل جهل الحلاق نفسه بمتن الأجرومية، لكني فهمت أن له تعديلات طفيفة على ما تمت حلاقته.

كنت معه كما كان جدي إسماعيل مع ابيه إبراهيم عندما قال: افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، ولذلك انهمك في الحلاقة متنقلا حول رأسي من جميع جهاته، وعندما رأيته يتعامل بوحشية مع مقدمة رأسي قلت له انتظر، واخرجت له صورة بوريس جونسون وأشرت بسبابتي إلى غرّته.

قبل أن يرى الصورة انشغل بهاتفه، وكما توقعت فإن اللعنة التي لحقت بزميليه قد أدركته أيضا. ترك المقص لزميله وغادر مهموما مغموما على وجه السرعة.

قلت للحلاق الرابع وقد شرع يقصّ في الفراغ حول رأسي: هل ماتت أمه أيضا؟ لكنه لاذ بالصمت. سألت ولم يجب فقد انشغل بدراسة الوضع الراهن لرأسي.

قال لي بعد حين من التأمل: تدري يا عزيزي أن شعرك الان لم يعد يصلح لأي موديل؟ لا موديل جونسون ولا حتى جورج السادس، قالها واستند بكفيه على ظهر الكرسي من خلفي بينما تسمرت عيناه على وجهي في المرأة يترقب جوابا أو ردة فعل. هو يترقب وأنا أتامل.

كان رأسي مثل ساحة قتال غادرتها الدبابات للتو، ران علينا صمت طويل، وعندما لملمت شتات فمي سألته: والان ما العمل؟

موت بدون عوده

هاهي الآن –وأنت في قلبها– نجمة تغور في قلب الظلمات، ومنذ قليل رأيت معالمها تحت أضواء المطار، رأيت الطائرة التي تحتويك، رأيت تفاصيل هيكلها الضخم وهي تقلع، وحين ابتعادها عن النور غدت شبحا يتصعّد في السماء، بدت لي وكأنها حوت أسود يعب الفضاء أمامه عبّا، ثم غدت مصباحا كبيرا معلقا بين السماء وبيني، وهاهي الان نجمة، نجمة تبتعد وتصغر. تصغر رويدا رويدا وسوف تذوي عما قليل– وأنت فيها– في عمق الظلام.

عند وصولنا إلى المطار، كنت أنا ممدا في سيارة أخي، وكنت أنت ممدا داخل صندوق خشبي في سيارة نقل الجثامين، اقترحوا لي مكانا داخل المطار، لكنت طلبته في الساحات الخارجية لأراك حتى الثمالة.

اختارك الموت بعناية، ولعله اختارك نكاية بي. أنهى مسيرة وفاء عشناها صغارا داخل حي واحد، وكبارا في متجر واحد. وأصبنا في حادث واحد، خرجت منه أنا مثخنا بالجراح وخرجت أنت منه لتعود إلى بلدك ميتا.

كنا قريبين رغم المفازة التي تفصل بلدينا، وكنا نصلي في محراب واحد رغم المكتبات التي تفصل مسجدينا. كنا شريكين وكان الله ثالثنا، أردنا – أنت وأنا– أن نكون أقوى من الجغرافيا فتركتنا الأقدار لقمة سائغة للجغرافيا.

كم توسلت ذويك، ناشدتهم أن يتركوك هنا، قلت لهم هذه البلاد التي تتسع لصخب الأحياء لن تضيق ذرعا بسكون الموتى، لكنهم اتبعوا الخيار الأقسى، قلت لهم يسروا طريق الوفاء لأبنائنا فأخذتهم نفخة الشياطين فأصموا واستغلقوا، وها أنت الان ميتا في قلب نجمة تبتعد رويدا رويدا وسوف تذوي عما قليل في عمق الظلام.

التورُّط في نجدة حمار

ما إن اكتمل عقدنا حتى قلنا للسائق اتكل على الله. كان بعضنا في القمرة بينما الغالبية في الصندوق، الصندوق فضاؤه رحب، مفتوح، يتيح للمدخن أن يدخن وللمغني أن يغني.

تحرك بنا "الشاص" وماهي إلا دقائق حتى ابتعدنا عن العمران ودخلنا بعدها في طريق لم يصمد أمام الطبيعتين التضاريس والمناخ، لذلك كنا نعلو كلما اعتلى، ونهبط كلما هبط، نميل حيث يميل ونهتز كلما اهتز.

بعد ساعة من السير على كف زلزال وصلنا إلى "العَجْمَة". توقف الشاص فترجلنا ومشينا نحو المسقط المائي المهيب، شلال العَجْمَة كما نسميه وكما نعشقه، نأتي إليه في كل مرة نتأمل الماء وهو يندفع عبر حافة من الصخر الأزرق ثم يهوي إلى قاع الوادي السحيق.

إلى اليسار من هذا المسقط تنبسط خميلة كأنما اقتطعت من جنة، تصطف فيها أشجار العرعر متغاصنة لتصنع ظلا وارفا يوازن المسقط المائي من على مصطبة تفرشها أعشاب خضراء طرية باردة تغنيك عن سجّاد تبريز الفاخر.

في جهة أخرى غير بعيدة عن مكاننا أنزلنا أمتعة الطبخ: قنينة الغاز والموقد وبضع قطع من الآنية فيها قدر كبير وقدران صغيران وعدة صحون وسكينة وملعقة وكبشة وملاس ومنزاع لنزع اللحم إذا استوى.

كانت المهام موزعة فيما بيننا وكأنها قانون. هناك من يجهز اللحمة، وهناك من يجهز الأرز، وهناك من يجهز السلطات، وهناك من نذخره بشكل دائم لإعداد الشاي، وهناك من يتمدد تحت العرعر أو يقرأ صحيفة أو كتابا.

وعندما جاء دوري وتمددت كنت أحضن جهاز غراونداينغ، ذلك الراديو الألماني الذي يأتيك بإذاعات الدنيا من حيث لا تحتسب.

عندما هممت بتشغيل الراديو لفت انتباهي حمار يقف في السفح المقابل. هذا أمر غريب فالحمير في القرى وحول المزارع أما هنا فأمر غير معتاد. بدأت يدي اليمنى تشغل الراديو وتدير منتخب المحطات بحثا عن محطة، أبحث وبصري صوب الحمار، ثم ما لبثت أن أغلقت الراديو ورفعت ظهري قليلا ثم قمت منتصبا أدقق النظر في أمر ما.

كان الحمار يقف ساكنا مثل تمثال، يتكئ على ثلاثة أرجل فقط، أما الخلفية اليسرى فهي مثنية قليلا وحافرها بالكاد يلامس الأرض. رأيت بوضوح معالم تورّم يوشك أن يبتلع الجزء السفلي من الساق. اقتربت خطوتين، ثم عدة خُطى. ظهر لي التورم، ظهر أكبر وأبشع وأشد إيلاما مما توقعت، كان يحيط بالمنطقة الفاصلة بين الساق والحافر عند المفصل.

أوجس الحمار خيفة عندما سمع وقع خطواتي، تحرك بصعوبة بالغة فتغير لحركته وضع رجله المصابة لأرى حلقة معدنية عالقة في منتصف الورم، غائرة في طبقات من اللحم المهترئ المتورم، والدم المتجلط، والقيح المتخثّر. طبقات، طبقات، في أعلى الحلقة وأسفل منها، وبان على وجه الحمار أنه يئن ويتألم بصورة فظيعة، بل أوشك أن أقسم لكم أن دموعه تلك لم تكن إلا نشيج كائن حي لا يقدر على البكاء.

لم أجد صعوبة في كسب تعاطف أصدقائي مع الحمار بينما أخفقت تماما في إقناع الجميع بضرورة إسعافه، وتخليص قدمه من تلك الحلقة المعدنية التي علقت بها رجله.

قمت عليهم خطيبا فلم يزدهم خطابي إلا إصرارا، بل وتهكما، حتى أن البعض قد وقف على قدميه ليقول لي: هناك العشرات من الناس بحاجة إلى المساعدة ولم تفكر إلا في مساعدة حمار، وزاد بعضهم في تهكمه عندما قال لي أنت عاطفي أكثر من اللازم لأنك "ولد كهلة".

اتخذنا قرارا، الذين آمنوا معي وأنا، رأينا تجميد حسابنا في هذه الرحلة والتبرع بوقتها للحمار. درسنا الموقف من شتى جوانبه ثم وضعنا خطة تتضمن أدوات العمل وآليته.

رأينا أن موقعة التحرير المنتظرة تتطلب مقصا يقص المعادن وحبالا قوية، ولما كانت مثل هذه المتطلبات غير موجودة كان علينا أن ننطلق إلى سوق المدينة لجمعها من هناك ومن ثم العودة بها ثم إجراء مناورات بسيطة ثم ننطلق في موقعة تحرير قدم الحمار.

عند عودتنا وجدنا بقية الأصدقاء في انتظارنا وعلى وجوههم كانت مفاجأة، بل كانت المفاجأة الكبرى حقا، ففي غيابنا استولت عليهم الدهشة من تصميمنا على نجدة الحمار، ثم تحولت تلك الدهشة إلى إعجاب ثم تحول الإعجاب إلى انضمام للمجموعة، لذلك رأيت أن من واجبي أن أضع خطة عمل فأنا أقود الجميع الآن وعليّ أن انفذ معهم خطة تجريبية نتدرب فيها لنضمن النصر.

في منطقة تواجه منتصف المكان الذي يقف فيه الحمار تمركز أحدنا وفي يده رأس الحبل، وتحرك آخر وفي يده الطرف الثاني، كنا نتدرب على الالتفاف وإحكام الحبل، وفي نفس الوقت كان هناك آخر في يده أنشوطة ينبغي أن تلتف حول رقبة الحمار وفي لحظة واحدة يجب أن يسقط الحمار على جنبه الأيمن ثم نتكاثب عليه وأقوم أنا بقص الحلقة الحديدية وتخليص الحمار.

نجحنا في طرحه أرضا وفي الارتماء عليه، لكننا لم ننجح في حماية أنفسنا من الأذى، كنا كمن يقاتل فرقة مدربة من حاملي الهراوات، وتعرض اثنان منا لنهشات مؤلمة. تلطخت ثيابنا بالدماء، دماؤنا ودماء الحمار، لكننا لم نكترث فقد عقدنا العزم على نجدة الحمار طوعا أو كرها.

استلمت الرجل المصابة وجعلتها بين ساقيّ، استصرخت ثلاثة لتثبيت رجل الحمار التي كان يحركها بقوه وجنون، مددت مقص الحديد وأنشبته في الحلقة الحديدية بينما رجل الحمار تنتفض في أيدينا ألما، وقبل أن أكمل قص الحلقة انبثقت نافورة من دم وصديد، بينما واصلت القصّ وملوحة الدم والقيح فوق لساني.

معادة صياغتها وقد نشرت سابقا في مجموعة البرطأونات تحت عنوان "حمار"

صباااع.. صباااع

ماكنت أعلم أن خروجنا هذا اليوم، سيكون آخر عهدي بصديقي وحبيبي وأخي الأكبر، بل أبي وأمي أيضا، هذا الرجل المتوشح بالبياض الذي ارتسم بياض لحيته على صفحة عيني يوم أن ماتت أمي، ومنذ تلك اللحظة ما نسيته. بات كل شيء في حياتي.

يبدو أن صديقي هذا قد تألم بعمق لذلك اليتم الذي داهمني فجأة، بلا مقدمات، ودون أي مبررات، وبلا داع، لذلك تفرّغ لصداقتي. أصبحتُ ألازمه مثل ظله، بل ربما قطع المسافات ولا ظل له أما أنا فما تركته إلا في أوقات القيلولة وأوقات الليل.

كان يأتيني في ساعات النهار الأولى فيختلط في عيني بياضان، بياض لحيته وبياض النهار، ثم نترافق سويا في نزهة عامة نزور فيها حقول القرية، ثم نختتم الضحى بوقفات لا تنسى أمام نبع القرية الدافق. أما القيلولة فهي حقه الذي لا يضيعه ولكم ردد على مسامع أحبابه: القيلولة متاع المتقاعدين.

عندما تبرد جمرة الظهيرة نخرج ثانية. نخرج، ولكن نحو الجبال. في مثل هذا الوقت يحب الجبال فيأخذني معه إليها، ولسان حاله يقول: في "العصاري" تطيب السفوح. حول القرية سفوح وتلال تحلو فيها النزهة، خاصة مع صديقي هذا، الذي جعل من قلبه أبا وأما لي، حتى بعد أن كبر سنّي وتمزّق عني رداء اليتم.

اليوم، تغيّر كل شيء. جاءني متجهما، على ذراعيه وفوق كفيه مسحة من توتر، وعندما ابتعدنا قليلا دفعني بعنف داخل سيّارته. ركبت والتفت نحوه

لعل شيئا ما يرتسم على وجهه، لعل هناك ما يبرر هذه الغلظة، فما رأيت إلا بياض لحيته.

خرجنا في موكب يطبق عليه الصمت. سار بنا حتى بلغنا أطراف المدينة. هناك أنزلني من السيارة بالعنف نفسه، وبالتجهم نفسه تركني في حشد من الأغراب ثم غاب عني في غابة من الأكتاف والمناكب.

بعد وقت طويل. وبعد هواجس لا ساحل لها، عانيت خلالها الكثير من الحزن والملل ومشاعر الغربة. بعد كل هذا، جاءني رجل غريب، لا أعرفه لكن ملامحه كانت محايدة تماما. لف حول رقبتي حبلا واقتادني، أخذني حتى أوصلني إلى حيث سيارته الجاثمة على أطراف سوق الأغنام.

مشاهد أبناء الجلدة

المشهد الأول: غوغاء

هَبَطَتْ من علٍ لتصنع السلام.

التفوا حولها فلما استلذوا بما تصنع قتلوها،

قتلوها واتخذوا من عظامها رؤوسا لرماحهم.

المشهد الثاني: العشيرة

أسرج لهم القناديل،

فلما أضاءت ما حولهم،

سرقوا نعليه.

المشهد الثالث: السلالة

ما إن سمع الصرخة الأولى لمولوده الأول حتى اقترب من النافذة،

فتحها جذلان،

ودون أدنى مراعاة لبقية المنتظرين،

شرع في النباح.

المشهد الرابع: حكاية

ما كتبتها لتصبح حكاية،

ولا ظننت أنها ستنبت فوق كل لسان.

كتبتها، قرأتها مرة، ومرتين، وثلاث.

سلمتها بيدي لملحن قدير،

صاغ لها لحنا جميلا وغنّاها،

وعندما قدمها للناس نسب الكلمات لنفسه.

اللاصوق

أكره أن ينام معي أحد في فراش واحد، حتى أمي ابتعدت عنها في طفولتي، وزوجتي بعد إن تزوجت. أكره تقارب الفراش، وأشد ما يضايقني في ذلك عندما يقترب مني أحد حد الالتصاق كما يفعل معي هذا المتطفل الان.

آه لو كنت قادرا لدفعته بقبضتي بعيدا، لكن ذراعي ثقيلة جدا، وكذلك ساقاي وفخذاي ثقيلتان وكأني أرسف في الأغلال، لا قدرة لي على المدافعة، وهو يتمدد بجانبي منذ خروجنا من المسجد، يلتصق بي وكأنه صديق ثقيل الظل يحاول مزاحا أو كأنه جاثوم يستمرئ إزعاج النائمين.

رقبتي أيضا كانت متكلسة، وعيناي لا تريان شيئا، وصوتي قد استقر في قاع حنجرتي كما استقر ماء في قاع بئر مهجورة، وهو يقترب، يقترب ويلتصق، وما لي من حيلة سوى الصبر وانتظار أن يفزعه تهليل الناس وتكبيرهم من حولنا فيفرّ مثل فأر مذعور، فإن لم تفزعه أصوات الناس فسوف يكون لعنة تلاحقني حتى في قبري.

توقف بنا المسير. أنزلوني على الأرض فغاب عني، وعندما أولجوني في قبري عاد ليتمدد معي ثانية، يقترب ويلتصق، و في داخل كفني هذه المرّة.

تراب على وجوه قاحلة

فازت هذه القصة بالمركز الأول في جائزة الشيخ راشد بن حميد لعام ٢٠١٨

كنت معه منذ ساعات الفجر الأولى. هو كعادته، لا يتخطى أوقات الصلاة أبدا، حتى صلاة الفجر لا بد أن يصليها تحت كل الظروف. كنت أعرف أن هذا اليوم هو يوم استثنائي في مسيرة عمره لذلك كنت معه، أسمع بأذنيه وأرى بعينيه وأتنفس برئتيه، أحصي دقات قلبه وأتدثر بأحاسيسه. صليّت معه صلاة الفجر، أتممنا الصلاة فحانت مني نظرة لوجهه، رأيت بياضا لافتا يشرق من وجهه. كان يبدو مبتهجا جذلان أكثر من أي يوم مضى وكنت أتملى دقائق وجهه، أتملاها كي أحتفظ بها في سجلات ذاكرتي، كلها وليس بعض لقطات منها. كل تلك الملامح التي ستصبح جزءا من الماضي، ملامح وجه أبي التي سوف تتغير بعد هذا اليوم الفاصل.

تأملت وجه أبي، انزلقت عيناي بتؤدة على صفحة وجهه الجميل، على شفتيه، وجنتيه، جبينه وعينيه، ضممت لحيته البيضاء بيدي، انحنيت، قبّلت ذؤابتها المستدقة المنسدلة. أمسك يدي ولمّا أرتوي بعد من منهل شعراته البيض، امسك يدي وتحسسها قليلا، جذبها نحو فمه وطبع عليها قبلة. قلت في نفسي: بعد هذا اليوم سيطوي أبي من وجهه ما نشر وينشر ما طوى، يقارب ما تباعد ويباعد ما تقارب، يرفع ما خفض ويخفض ما رفع. طبع قبلة أخرى، قبلة سخية حظي بها كفّي ثانية، قبلة حانية صرّمت حبل تأملاتي، تصرّم الحبل فانفرطت حباته مثل خرز اللؤلؤ، تناثرتْ شغفا وحبا على صدره الرحب وعلى صفحات وجهه الأبيض الجميل.

حرّك رأسه على الوسادة، تقوست عنقه حتى بدأ وكأنه ينظر إلى السقف فوق رأسه، قال: هل تدري أن الأمل كبير جدا في نجاح هذه العملية؟ اقتربت منه وقلت: نعم، أدري. أضفت وأنا واثق من كلامي: قال لي الطبيب

أن نسبة نجاحها عالية جدا، نسبة تصل غالباً إلى مائة في المائة. كل الناس الذين خاضوا هذه التجربة يقولون ذلك، بل سمعت أيضا أنه من النادر أن يدخل مريض هنا وتتعثر حاجته. كل من جاء هنا خرج مكللا بالشفاء. هذه الكلمات كانت مثل يد حانية زادت أبي اطمئنانا على اطمئنانه، كانت يدا حانية أعادت رأس أبي إلى وضعها الطبيعي مرة ثانية، ارتخى وسكن وتوضّع فوق السرير وابتسامته باقية على حالها.

كان أبي قاسيا على نفسه وأمي كانت قاسية على نفسها وسائر الآباء والأمهات في زمانهم كانون لا يرحمون أنفسهم. لقمة العيش كانت عزيزة المنال، ما حال حر الصيف بينهم وبين العمل تحت حمارّة القيظ، ولا برد الشتاء عن العمل تحت حمارّة الزمهرير. استسلموا للحمارّتين من أجل لقمة العيش، تنازلوا عمدا وأريحية عن كثير من شروط الصحة العامة، طوح بهم شظف العيش بعيدا عن طلب الوقاية، بعيدا عن طلب العلاج، بعيدا عن دواعي الراحة، وما هذا الظلام الحالك الذي اختلس النور من عيني أبي إلا بعض نتاج ذلك العذاب وتلك القسوة. عاشوا حياة قاسية طواها القدر العجيب، طواها عن جيلي طي السجل للكتب، طواها حتى بتنا مثل نبات الظل؛ هشٌّ وباهت.

استند أبي على مرفقيه وأخذ يندفع بصدره حتى استقر جالسا، رفع رأسه قليلا. اقتربت منه حين رأيته ساهما وسألته إن كان يريد شيئا، قال لا ثم استلقى ثانية، استلقى رويدا رويدا بكثير من التأني، شبك كفيّه تحت رأسه. أدركت أنه يتململ، قلت له: الانتظار ممل جدا يا أبي، فاجأني عندما قال أنا لا أنتظر، أنا في قلب الحدث. ما دمت سأرى الجبلين بعد أيام فأنا في

قلب الحدث، ما دمت سأرى سدرة الشُّعْب ورِدْم حامد وبئر المنهل فأنا في قلب العملية، سأرى مرابع صباي، سأراك وأرى إخوتك، سأرى الناس والكائنات، سأرى سماء بيتي وأرضه. أنا الان في قلب الحدث ولست عند عتباته حتى انتظر، في قلب الأمل يا ولدي.

كادت ابتسامة أبي أن تضيع من على شفتيه لولا أن تداركها، هو تدارك ابتسامته أما أنا فلم أتدارك عبرتي. كانت تلك هي المرة الأولى التي يتحدث فيها عن نفسه، عن احتياجاته، عن مطامحه الشخصية، عن مشكلته مع نور البصر. مذ عرفت أبي كان لا يتحدث إلا عنّا وعن حاجاتنا وعن مطامحنا الخاصة، نسي نفسه لكنه بحث عنها فينا. كانت المرة الأولى التي يتذمر فيها من ظلمات العمى، كنا نظنه لفرط صبره قد استأنس الظلمة وطاب له العمى، لذلك أحسست بتفاهتنا من حوله، أحسست بغيابنا الأبله عن مأساته، أحسست بأننا جزء من ذلك الظلام الحالك الذي يحيط به، لهذا تكسر البكاء بين أضلعي، عجزت عن احتواء أدمعي فانثالت كما لم تكن من قبل.

دخلت علينا الممرضة في بياضها المعتاد، كان ظهري للباب فاستدرت نحوها. اقْتربتْ مني، استأذنتْ في شيء من المعلومات، تحقّقَتْ من اسم ابي، أخرجت ورقة تحمل صورته من رزمة كانت معها، دونت وصفا لحالته ورقما من بطاقته الشخصية ثم خَرَجَتْ. أدرك أبي الذي كان يرخي سمعه أن الموعد قد أزف، وأن الميسم قد اقترب من رقبة البعير كما يردد دائما. لاحظ غياب صوتها فسال: خَرَجَتْ؟ قلت خرجت. جلس واستدار في مكانه ثم دفع بساقيه حتى تدلتا من على حافة السرير. ظننته سينزل من على السرير، خشيت أن يصيبه أذى، اندفعت أتمهّله قليلا، وقبل أن أقول

شيئا دخلت الممرضة. دخلت ودخل معها اثنان من طاقم طبي يدفعان سريرا متحركا.

انطلق السرير عبر ممرات باردة، باردة وضيقة وطويلة، أبي ممدد فوقه لا يرمش له جفن وأنا أحث الخطو خلفه، الممرات تتزايد طولا وبردا وضيقا. خيّل لي أن ذلك الطول متعمد في ممرات المصحات جميعا، ربما لرفع درجة التأهب النفسي عند المريض، وربما عنده وعند مرافقيه وعند العاملين في المستشفى أيضا. انتابني ضَلَعٌ مفاجئ وأنا أحاول اللحاق بهم، توقف الركب أمام المصعد ففرحت، فرحت بلحظة التوقف تلك لأفرك قدمي. انفرجت بوابة فدخلنا جميعنا. السرير المتحرك في المنتصف ونحن وقوف حوله. تحرك بنا المصعد إلى الأعلى أو إلى الأسفل ما عدت أدري، كنت أتملى وجه أبي، وأتأمل جسمه وهو مسجى بغطاء من جوخ أخضر فوق ظهر السرير المتحرك.

أسلمنا ذلك المصعد الواسع إلى ممر آخر، ممر بارد جدا وضيق وطويل، لا يختلف عن الممر السابق في شيء سوى أنه يزرع إيحاء بالكآبة. كان ممرا كئيبا رغم الضوء الشديد الذي يملأ جنباته والذي لم يكسر شيئا من وحشته، لم أفهم سر الاكتئاب الذي تملكني حينها لكن طوله لم يفارق مخيلتي حتى اليوم. كان الممر لطوله يتناهى إلى نقطة تلاشي في آخر المشهد، نقطة الفرار التي نندفع وسرير أبي نحوها كانت هي غرفة العمليات المخصصة لنا. كنا نقاوم المسافة والوحشة، نقترب شيئا فشيئا، وعندما اعترض باب الغرفة طريقنا أشارت الممرضة إلى غرفة صغيرة، غرفة في الجهة اليمنى عند نهاية هذا الممر ثم قالت لي: هنا.

أخذوا أبي وتركوني واقفا أترقب، أترقب وأراقب مسار الحدث الذي اشتغل عليه وسواسي الخنّاس. دخلوا غرفة العمليات وأبي معهم كأنه فوق بساط الريح، دخلوا ثم أغلق الباب درفتيه وراءهم، شعرت وكأنني إنما أخون أبي بالموافقة على البقاء هنا، تركته يذهب وبقيت هذا عار. تحركت نحو الباب، دفعته بيدي فلم تهتز له درفة، بحثت فيه عن ثقب مهما كان اتساعه، عن بصيص أمل أرى فيه أبي من خلاله فلم أجد. يا للدناءة، لماذا يجعلون بابهم عدوّا لهذه الدرجة، ما كان ضرهم لو تركوا فيه فرجة ولو كانت مثل سم الإبرة، ما كان ضرهم لو تركوني أدخل مع أبي. ابتلعت حنقي ثم استدرت نحو تلك الغرفة غرفة الانتظار التي أشارت بها الممرضة.

في تلك الغرفة اجتمع حولي البرد، غرفة جمعت البرد من أطرافه. كنت هنا مثل فراشة ضالة قادها حظها التعيس إلى قلب فريزر بارد، ذلك البرد الممعن في البرد: مقاعد الألمنيوم الباردة وشاشة التلفزيون الباهتة. جلست على مقعد الألمنيوم فلم أستطع، أرغمت نفسي على الجلوس فلم أقدر، ومن يقدر أن يجلس فوق قالب من الثلج؟ قلت لنفسي ما لذي يجنيه المستشفى من وراء كل هذا البرد؟ رفعت رأسي إلى حيث الشاشة، داخلني شعور غريب تجاهها. تحركت نحو الحائط الذي يحملها فوق ظهره، مددت إليها يدي، بحثت في مفاتيحها، كانت أصابعي منملة مخدرة، كررت المحاولة ثم بصعوبة بالغة أغلقتها، ظننت لوهلة أنها سبب كل هذا البرد الذي يسكن هذه المصحّة.

فتشت عن مفاتيح التكييف، فتشت في سائر الحيطان وفتّشت في السقف أيضا. توجهت للنافذة، قلت أحرك زجاجها لعل مكعبات الصقيع تخرج من هنا، أو لعل دفئا ضالا يدخل. كان الشباك أيضا من النوع العدائي الذي

لا يستجيب لشيء، الزجاج هنا لا يقبل التحريك ولا التعديل، هذه النوافذ لا ترحم والبرد يتراكم على ظهري مثل دين فادح لدائن لئيم. حاولت الجلوس ثانية دون جدوى فالمقاعد قد نُسجت من زمهرير، تحركت في الغرفة مثل ذئب في قفص الفرجة يلوب في أرجائه، كنت أنا أيضا أدور في أرجائها بلا هدف وبلا كلل في آن معا. غيرت رتابة الحركة، تحركت صوب الباب ثم نحو النافذة، نحو الشاشة ثم نحو لوحة زاهية على الجدار المقابل، توقفت أمام اللوحة، ضعت بين لملمة ألوانها وبين لملمة تركيزي الذي تشتت على وجهها.

بدأت أطرافي ترتجف ودمي يتباطأ في شراييني، سمعت صوت أسناني كأنه نقر طائر على حافة طاولة. أعدت تمكين عمامتي، لففتها حول صدغيّ ثم ربطت ذؤابتيها فوق هامتي، ضممت جناحيّ مثل طائر عَمِيَتْ بوصلته، أو مثل نسر قارح يتأهب للموت، التصقت بالركن القريب مني فلم أحتمل برده، بحثت عن مفاتيح التكييف مرة أخرى فلم أجد شيئا. تركت غرفة الموت البطيء إلى الممرّ، مشيت وئيدا ثم تذكرت الهرْوَلة، شرعت أهرول نحو نقطة التلاشي في آخر الممر، بلغتها وقد تحرك دمي قليلا، استدرت نحو نقطة التلاشي المقابلة فلما بلغتها استدرت، أولدت الهرولة دفئا دبت معه الحياة في أطرافي، أمضيت الوقت وأنا أهرول بين نقطتي التلاشي، كلما بلغت واحدة استدرت نحو الثانية.

عندما استدرت في مطلع وجبة أخرى من وجبات الهرولة رأيت الباب البعيد تنفرج درفتاه، الباب الذي انتزع أبي من قلبي وتركني للبرد القارس، تخلى ذلك الباب المتجهم عن قسوته أخيرا. أسرعت مثل شوق جارف حتى

التقينا عند فمه، هم وأنا والسرير الذي يحمل أبي، ما إن وقعت عيناها عليّ حتى هشّت وبان النصر على وجناتها، قالت المرضة مبروك، التفت نحوي الطبيب الذي أراه لأول مرّه وابتسم، كان فخورا بما تحقق بعد عملية دامت أربع ساعات. عندما قال أربع ساعات أيقظت كلماته أول ما أيقظت إحساسي بالزمن، الزمن الذي نام في داخلي، الزمن الذي أكله البرد كما يأكل أوراق الشجر، عندها تحركت باندفاع ولثمت رأس الطبيب.

نظرت إلى أبي المسجّى فوق السرير النقّال، عصابة الشاش التي تحجب عينيه هي فقط التي كانت توحي بالحياة وما عدا ذلك لا، ظننت أن أبي قد خرج من غرفة العمليات ميتا لكن عصابة الشاش فوق عينيه كانت تسكب السكينة في قلبي، مادامت العصابة فوق عينيه فهو حي إذن. رغبت أن أسمع بأذني تأكيدا مسؤولا فسألت الطبيب. سألت الطبيب عن أبي فابتسم، أبي الذي ابتسم، أبي وليس الطبيب، ابتسم ابتسامة خاطفة مثل بارق يبتلعه الغيم، ابتسامة عجلان لم يبق لها من أثر على محيّاه، ثم ابتسم الطبيب وابتسمت الممرضة، وقبل أن يتحرك السؤال على لساني قال الطبيب: هذه أول بواكير الإفاقة، وقالت الممرضة: ستبقى معه في غرفة الإفاقة.

لاحظت وأنا وهو وحيدان في الغرفة أن يديه مكبلتان إلى السرير. أدركت أنهم فعلوا ذلك حيطة، المريض تحت تأثير الخَدَر قد يؤذي نفسه، تخدير الناس يسلب منهم الإرادة فتغدو تصرفاتهم لا إرادية. هنا تراجعت عن مساعدته وكنت أتمنى لو أطلقت يديه، هذه هي المفارقة العجيبة حقا، أن أقبل قيدا في يد أبي. تجاهلت ذلك القيد، شغلتني أنفاسه، أراقب صدره إن كان ما يزال يعلو ويهبط، صمْتُه أسدل ستارا من السكون خيم على المكان،

حتى برد المستشفى لم يعد يعني لي شيئا فهذا الصمت أبرد. رفعت الغطاء عن قدميه، انحنيت فوقهما ثم قبلتهما وأعدت الغطاء، اقتربت من وجنتيه، رأيت فوق أرنبته نقطة دم تكاد لا ترى، حزنت كثيرا لذلك، اقتربت منه أكثر وهمست: أبي.

أدركت أمام نقطة الدم تلك أنني وهو لُحْمَة واحدة. الرجفة التي انتابت قلبي والحزن الذي دبّ في نفسي والنار التي تسعرت في فؤادي كلها تقول لي: من هذا الدم كان غِراس دمك، أنت جزء من هذا الكائن الممدد على سرير الإفاقة، جاء بك إلى هذه الدنيا، جاء بك وجاء بإخوتك من قبل، كنت آخر العنقود فانشغل بك تماما، لم يغمض له جفن دونك، لم يترك لتقلبات الدهر سانحة لتعبث بك، كنت كل شيء في حياته وكان كل شيء في حياتك، هو أنت وأنت هو، يغيب عنك في هذه اللحظة فقط، يغيب غيابا لم يكن من قبل، فقد بصره فأودعك بصيرته، تقدمت به السن فاسترد صباه ليكون رفيق صباك، تقدمت بك السن فجعل من صلبه ظهرا تشتد به عزيمتك.

نطق أبي بضع أحرف مقطعة، غمغمة لم أفهم منها شيئا. تسارعت نبضات قلبي، كدت أن أنزع مسامعي التي أخفقت في سماع كلمات أبي، اقتربت منه لكنه عاد إلى الصمت، تذكرت ابتسامته قبل قليل التي كانت مثل بارق ابتلعه الغيم. سألته إن كان قد قال شيئا فلم يردّ، كررت السؤال لعله يسمع فلم يتكلم، مضت برهة قبل أن تتحرك شفتاه، خيّل إليّ أني سمعت اسم أمي يخرج لطيفا من فمه، أعدت اسمها قريبا من أذنه فابتسم، ابتسم ليصنع ابتسامته الثانية منذ تركته على باب غرفة العمليات، ابتسم حين أسمعته اسم

أمي ولكن أمي قد ماتت منذ زمن، فقدها أولا ثم فقد نور عينيه بعدها، كيف عادت على لسانه وقد طال بينهما الأمد؟

لحظات مضت ثم جاءت الكلمات تترى فوق لسانه، تتابعت كلماته متقطعة لا رابط بينها، غلب اسم امي على كل الكلمات التي نطق بها، كلمات تتخللها كلمات، أسماء تختلط بأسماء. أسماء المزارع التي يملكها في القرية فكل أرض في قريتنا لها اسم مشتهر، ورد اسم سماح على لسانه كثيرا، سماح هو اسم أمي، وسماح الماء هي البئر التي حفرها بيده، حفرها وعندما نبع ماؤها جعلها سبيلا للناس. إذا قال سماح لوحدها فهو يعني أمي، وإن قال سماح الماء فهو يعني البئر. دخل الطبيب والممرضة وأنا أتنصت، استمعا معي فأخذهما العجب، سألني الطبيب عن بعض الكلمات، هزّ رأسه وقال لي: هذه هي كلماته التي كان يرددها في دقائق الخَدَرِ الأولى!

أخذني النوم على حين غِرّة، كنت متعبا لم أذق للنوم طعما مذ أتينا إلى هذا المكان لذلك نمت، نمت على مقعد المُرافق، مال راسي للخلف حتى اطمأن على حافة ناتئة من الجدار خلفي، ظننتها غفوة يسيرة فلما انتبهت طالعت ساعتي، يا إلهي! لقد غرقت في سبات طويل دون أن أدري. شعرت ساعتها بضعفي البالغ وبتقصيري مع أبي، شعرت بالخزي فانتفضت مفزوعا، قلت يا للهول فتململ أبي وفاجأني بقوله: هل صحوت؟ كم ناديتك باسمك لتعدل من وضع رأسك، شخيرك كان أشبه بصوت منشار يقاوم عقدة في لوح من الخشب. قال ذلك ثم ضحك ونهضت نحوه، سألته عن حاله وفي داخلي خجل لن يمحوه صحو مهما طال.

حضر الطبيب ومعه طبيب آخر ما رأيته من قبل، جاءت الممرضة أيضا، جاءت ومعها ممرضتان ما رأيتهن من قبل. تحلقوا جميعا عند رأس أبي، اقتربت أنا أيضا، مددت عنقي من فوق أكتافهم، تبادلوا الأحاديث فيما بينهم، تحدثوا أيضا مع أبي ومعي. كان الطبيب جذلان وكنت جذلان وكان رفاقه جذلى. اشتكى أبي من ألم يروح ويجيء، يشتد أحيانا حتى يكون مثل مخرز في كفّ خراز. انحنى فوقه طبيبه وعندها أخبرتني الممرضة أن هذه العصابة سترفع عنه إذا جنّ الليل، قالت معللة: الليل وقت مناسب لرفع العصابة، رفْعُها يقتضي قدرا معلوما من الضوء وهذا شرط لا يحققه سوى ضوء المصابيح في الليل، لأن المصابيح قابلة للتحكم. قلت أنتم أدرى.

عندما أزاحوا العصابة عن عينيّ أبي أدركت أنهما قد تغيّرتا، أدركت ذلك منذ اللحظة الأولى لنزعها. كان يقلّبُ عينيه فينا حائرة بعد أن جمدت دهرا، النون في لجّتها يتحرك وكنت لا أراه قبل الليلة إلا مشدودا نحو نقطة ما لا يتحرك. أن يقلب عينيه فينا وأن يتحرك نونيهما فهذا تطوّر مذهل، هما علامتان من علامات النور. عندما انفرج وجهه وافتر ثغره عن ابتسامة تأكد لي أن قد أبصر النور تماما، ابتسم فلما ابتسم تراخت أقواسنا المشدودة، ابتسم فلم تترك ابتسامته شيئا من الشك في دواخلنا، غيّر الطبيب العصابة بأخرى جديدة، لف تلك العصابة مكان سابقتها ثم قال لنا: لابد من الراحة والدواء واجتناب الضوء والحركة والماء، قالها نصيحة صارمة ثم خرج وبقيت وحدي مع أبي.

تحركت سيارتنا في الطريق إلى القرية، قريتنا الوادعة التي تشتاق لنا ونشتاق لها. كان الطريق أنيسا لكنه بدا لأبي غريبا، كل شيء في الطريق

كان جديدا عليه إلا بعض الجبال، بعض الجبال كانت مألوفة له ويعرف أسماءها، يسميها كما يسمي أبناءه وأصدقاءه. استرقت نظرة خاطفة سريعة لأراه، رأيته يتفحص الأماكن وكأنه يقرأ صحيفة الصباح لذلك خففت السير، خففته ليستمتع بما يرى فقد كان مثل طفل يرتاد السوق لأول مرة، خففته تجنبا لإجهاد عينيه أيضا فهو خارج من عملية جراحية، نعم طريقنا طويل جدا لكن متعة أبي فوق كل المسافات. عاهدت نفسي على مساعدته ما بقي وبقيت ليستمتع بنور عينيه ولن أخلف مع نفسي عهدا.

أَخَذَتْ منه الدهشة كل مأخذ وهو يرى الفرق بين حياتين أبصرهما، فرح بالطريق الإسفلتية الواسعة، أذهلته الكباري المعلقة وهي تلتف حول بعضها، اغتبط بأبراج الكهرباء يتناول بعضها بعضا على ضفة الطريق، تعجب من لافتات الدعاية وما كانت الطريق بين مدينة وقرية تعرف الدعايات التجارية أبدا، سرّه كثيرا أن يرى محطات الوقود تتناوب المسافات وما كان يرى إلا واحدة في نهايات المدينة وأخرى في بدايات القرية، أخذت مصابيح الإضاءة بشغاف قلبه وكان يقول لي كيف مزقوا أستار الظلام بهذه المصابيح، أبدى استغرابه لأسطورة المسافة كيف تحطمت ولوعثاء السفر كيف تلاشت ولوحشة الطريق كيف تبددت، سألني عن السباع أين ذهبت وعن قطّاع الطريق كيف اختفوا وعن الأشواك من اختلاها؟

سألني بحرقة عن مقاهي الطريق التي كانت مسقوفة بجذوع النخل أين ذهبت؟ حدثني طويلا عن لحظات استرخاء في ظهيرة يوم قائظ تحت تلك السقوف، حدثني عن الحداء الذي صمت وعن مجالس الحكي فوق ظهور سيارات اللوري القديمة، حدثني عن النوم فوق تلك الأسطح التي

تتهادى بين الشعاب والأودية، تتهادى به إلى أن يتّحد مع النجوم، إلى أن يغفو معها في حضن الكون، حدثني عن أصوات الأذان والسيارة تقتحم بهم فجر المدينة، حدثني عن عربيات الماء تستيقظ مع ساعات الصباح الأولى، حدثني وحدثني بلا انقطاع، تدفقت ذكرياته دفقة تجر دفقة حتى بان على وجهه أسف غريب، ظننت أنه سيجهش بالبكاء فالذكريات حلّابة للدمع لكنه لم يفعل.

جاء الناس من كل القرى التي تتناثر حول قريتنا، تقاطروا حتى امتلأت بهم الطرقات والساحات وبقايا المدرجات، جاءوا رجالا وركبانا من قرىً بعيدة وأخرى قريبة. فيهم من جاء للتهنئة وفيهم من جاء لمشاهدة المعجزة، استولت الدهشة على كل من عليها. سافر هذا الرجل كفيفا وعاد مبصرا وإنه لعجب عجاب، عرفوه رهين العمى لعدة عقود وها هو الآن يحصيهم فردا فردا، كيف حدث ذلك؟ هل ودّع العمى بالفعل؟ هل زرعوا له عينا؟ من أين جاءوه بها؟ هل شقوا بَرَدَةَ عينه ثم استلّوا منها الظلام؟ لعله السحر قد أخرجه من خيمة العتمة ونحن لا ندري؟ هل تألم كثيرا؟ كم دفع لهم؟ هل سجد لله شكرا على ما أنعم به عليه؟

اعتلى أبي منصة المكان وكان أكثر علّوا منها، استدار الزمان على راحتيه كما يستدير خاتم المُلْك في إصبع ملك مطاع. تكاثر الناس حوله، أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم، تدافعوا، تزاحمت أكتافهم حتى لم يتركوا لنا متسعا من المكان ولا من الوقت. أصواتهم كانت مثل النقش في ذاكرته الحادة، تعرّف عليهم بأصواتهم، شاهدهم بأذنيه قبل أن تراهم عيناه لذلك لم يجد صعوبة تذكر في التعرف على كثير منهم. اختلطت الأمنيات الطيبات

بالدعوات بالأسئلة، امتزجت الدموع بالدموع، استعرت الأشواق وانثالت شآبيب الدهشة. كان مهرجانا حقيقيا اصطف فيه أبي والناس، تجدّل الحب بالحب واللهفة باللهفة، كان يوما مهيبا فاصلا شطر زمان القرية إلى عهدين.

انتهى المهرجان وانفض السامر. اجتاحنا صباح اليوم الثاني ونحن نتأرجح بين إصرارين، إصرار أبي على الخروج وإصرارنا على تأجيل ذلك الخروج. الحركة والهواء وضوء الشمس قد تفسد انتصاره على العمى خاصة والعملية الجراحية ماتزال غضة، ماتزال خضراء كما يحلو له أن يصفها، مع ذلك انحنت اراداتنا أمام إرادته وكسب المعركة في نهاية المطاف. لم تنحني إرادتنا لأنه تمسك بفكرة الخروج بل لأنه تعامل معها وكأنها ثمرة من ثمار انتصاره العظيم، ذلك الانتصار كان حلما وكان شغفا فكيف لا تنحني له هاماتنا؟ ثم أنه وصف محاذيرنا وهو يمزح بأنها تليق بأطفال صغار لكنها لا تليق برجل عاقل بالغ رشيد جاع أكثر مما شبع وعَرِيَ أكثر مما اكتسى؛ وكان مقنعا.

تحركت بنا سيارتنا المسوّمة، كان عليها أن تقطع بنا مسافة يسيرة في طريق مزفّت، قطعنا الطريق المزفت فاستلمنا طريقا تَرِبَة. تهادت سيارتنا فوق ذلك الطريق الترابي حتى أفضت بنا إلى كراع من الأرض، جلَدٌ لا مسلك للسيارات فيه لكنه في متناول أقدام العابرين. عبرنا الكراع سيرا على الأقدام حتى استوى بنا السير فوق حافة من الأرض، حافة من حجر مشيد تحجز خلفها مسطحا من التربة الزراعية. كانت الحافة حائطا من حجر ومطلّا في الوقت نفسه، كانت مطلّا يشرف على رحبة الوادي، ورحبة الوادي بدورها كانت تحتضن بُلُدا زراعية غير منتظمة في أشكالها، لكل قطعة منها حكاية

ووراء كل حكاية أسطورة، وكانت أكثر تلك البُلُد ملكا لأبي يراها تاجا فوق رأسه.

انتصب أبي واقفا على حافة المطلّ الفاتن. قامته المديدة وظهره الذي لم يستسلم للدهر، شموخه والعصا التي ينتصب معها، كل ذلك جعله يبدو لنا وكأنه آدم أبو البشر جميعا. ساد المكان صمت مهيب، كان أبي يرتب بوصلته ويتنازل شيئا فشيئا عن انفراجات ملامحه، جال بعينيه مثل صقر يتابع فريسته ثم قال: هذا وادينا، كأنني ما أغمضت عيناي عنه طرفة. قلت: نعم، قال: لكنه أغبر، غير ذي زرع. قلت: منذ ثلاثين عاما وهو أغبر. استدار نحوي مصدوما وسأل: والخبزة التي كنا نأكلها كل يوم؟ قلت: من أستراليا. أغلق وجهه أمام وجوهنا فأدركنا حينها أمرا كان علينا أن ندركه من قبل، تأخرنا عن ادراكه فتصبب منا العرق عندما أدركناه الآن. ما كان ضرنا لو أخبرناه منذ البداية عن حقيقة الوادي، بل ما الذي أضلني أنا عن ذلك حتى ولو أغضبت إخوتي؟

عاد إلى حافة المطل، التصقت شفتاه ببعضهما أكثر من أي وقت مضى. نظر إلى سفح الجبل الذي يرتفع فوق المطلّ، أمعن النظر فيه وكأنه يحصي المدرجات الزراعية الخَرِبة. استدار ثانية نحو الوادي، مد بصره حتى آخر الوادي، عاد إليه البصر وهو كسير. قلت في صدري مندهشا: أبي لم يعد أبي. اقترب منا ونحن وقوف، وفي لحظة لم تكن محسوبة أبدا انحنى والزبد ملحا على فمه، انحنى وغرف غرفة من التراب حثى بها في وجوهنا ثم أدار لنا ظهره ومضى.

عشرون طريقة لاستراق السمع

ما إن ألصقت أذني اليسرى بصفحة الحائط وبدأت التقط همسات الجيران حتى داهمني أخي، ما علمت بدخوله ولا أحسست به إلا عندما وقف على رأسي وكأنه شاويش صارم القسمات يقف على رأس لص عاثر الحظ.

تسمرت أذني على صفحة الجدار المدهون. أصبح رأسي جزءا من الحائط، يلتصق به ويتكلس مثله. أما بصري فقد تحرك كما تتحرك كاميرا تدار من مكان بعيد.

تحركت عيناي حتى ارتفعتا عن أقدم الحائط مترا وزيادة، انتقلت لتبتعد عن الحائط مترا وزيادة، توقفتا على صرامة وجه أخي، على الغلظة التي يرتديها بلا كلل، على ملامحه التي تغضنت على القسوة في ثناياها، على وجهه الجرانيتي الذي سمح له أن يتسلق أسوار بيتي، أن يداهمني على حين غره، ومهما كان سلوكي شنيعا فإن سلوكه هذا أكثر شناعة ولكن لا حيلة لي.

نزعت رأسي عن الحائط ووقفت منتصبا مثل رمح في يد فارس جبان.

أنا أخاف كثيرا من أخي هذا، فهو رجل حاد المزاج ويرى في نفسه الوصي الأمين عليّ بعد موت أبي، وإلى ذلك فهو أكبر مني، فارق السن بيني وبينه كبير جدا، بل هو أكبر من أمي أيضا! ذلك أن أبي قد تزوج أمي بعد موت أم أخي بسنوات طويلة فشاء الله أن يكون أخي هذا أكبر منها.

عندما داهمني منذ سنوات وأنا أدخن، أمسك بأطراف كتفيّ وهزني هزا عنيفا، كان يقول لي بصوت مفعم بالحزن: ماذا أقول لأبي يوم القيامة؟ ماذا أقول له إن قال لي كيف غفلت عن أخيك حتى ابتلعه التدخين؟

اليوم يبدو أن الحال مختلف عن يوم التدخين ذاك. اليوم داهمني وأنا أتنصت، وعلى من؟ على الجيران. وهذا في كل الأعراف والقوانين والأديان عمل منكر، ولذلك سلمت نفسي لأخي، يفعل بي ما يشاء فالجرم عظيم، وقد ضبطني متلبسا وانتهى الأمر.

بادرت إلى تأليف كذبة لعلي أنجو بها من بطشه فقلت: اشتريت بالأمس كتابا لتوماس مايكل. وقبل أن أكمل سألني: توماس مايكل؟ سألني وأنا والله لا أعرف أحدا

بهذا الاسم، ولا أعرف حتى كيف جاء على لساني، ومع ذلك فقد أجبت: نعم ، توماس مايكل.

واصلت مشروع الكذبة: توماس مايكل هذا له كتاب اسمه: أربعون طريقة لاستراق السمع.

فاجأني أخي بعدم اكتراثه بالأمر. دعاني للجلوس على حافة السرير، فلما جلسنا متقابلين، حدثني بحزن عميق عن ابنه الأصغر الذي ضبطه وهو يدخن. قلت له: لا تحزن يا أخي، هكذا هو سنّ الطيش، وهكذا هي تجارب المراهقه.

انتصبت واقفا ثم واصلت: ابنك سيهديه الله كما هداني، هل تذكر حكايتي مع التدخين؟ وهنا نهض أخي، وضع يده على كتفي وقال: نعم أتذكر ذلك، ولهذا جئت.

وبعينين يعلوهما انكسار، قال لي: جئت أطلب عفوك فقد أسرفت يومها في تعنيفك، ولعل ما حدث اليوم من ولدي كان انتقاما لك.

ضحكت كثيرا عندما خرج من عندي بصيده الثمين. لقد ألزمني بعبارات عفو محددة كنت أرددها خلفه. فرح كثيرا بالعفو وخرج، خرج من عندي جذلان بينما عدت نحو الحائط، أحدق فيه وأضحك.

ثم لن تدخلوا الجنة

والغارة الجوية على أشدها، والقصف المروّع يغلق أبواب الرحمة، كنا نحمل متاعنا ونهرب باتجاه الشرق بعيدا عن الغارة، بلغنا مكانا آمنا غير أن ظهورنا قد أودى بها حمل الأمتعة فتساقطنا على الأرض الآمنة كما تتساقط طيور أنهكها الطيران المستمر.

بعد يومين من أمان لا أمان له اكتشف العدو مكاننا فألهب سماءنا والأرض من حولنا. قررنا النجاة بأنفسنا. تركنا نصف الأمتعة ولذنا بالفرار حتى وجدنا ملاذا آمنا نحو الجنوب، ارتمينا على الأرض وقد أدمى الخوف أقدامنا الحافية. استولى علينا نوم لا يهاب أحد فنمنا.

استيقظنا بعد ساعتين على دويّ القصف وأجيج النار التي اشتعلت في السماء وفي الأرض من حولنا، هربنا دون أمتعة في هذه المرة، فقط بملابسنا وكم كانت ثقيلة على هاربين يتتبعهم الموت. استقر بنا الخوف وراء صخرة كبيرة كأنما أنبتها الله في تلك الرمال إنباتا.

سألتْ زوجتي: أين نحن؟ قلت لقد أتممنا ثلاثة أرباع الدائرة. من الشمال حيث قريتنا، إلى الشرق الذي تركنا فيه نصف أمتعتنا، إلى الجنوب الذي تركنا فيه نصفها الآخر، وها نحن الآن في الغرب ولو أكملنا الدائرة لعدنا إلى قريتنا المدمّرة. قالت: بل سنبقى هنا، لا شيء هنا يلفت انتباه طائراتهم. أمضينا في حماية هذه الصخرة بعض الوقت، لكن طائراتهم قد اهتدت إلينا فأسقطت القنابل فوق الرمال المحيطة بنا. هربنا بعيون لا ترى والغبار يملأ صدورنا، نفتح أعيننا ثوانٍ بسيطة ثم نعود لإغلاقها ثانية، ومع كل مسافة نقطعها كنا نتخلص من ملابسنا قطعة بعد أخرى.

وصلنا إلى أنقاض قريتنا ونحن عراة كما خلقنا الله، دخلنا بيتنا الذي لم يبق منه سوى ثلاثة أعمدة وسقف آيل للسقوط. اقترحتُ على زوجتي أن نغادر بعيدا عن هذه الأنقاض لكنها أبت. رفضت بشدة، مفضلة الموت تحت الأنقاض على أن تهرب عارية.

لبستُ قناع الفلسفة وقلت لها: وما المشكلة؟ جئنا إلى هذه الحياة عراة، ونخرج منها عراة، وسوف يبعثنا الله يوم القيامة ونحن عراة أيضا، ردت عليّ بثبات عجيب: تلك حالة وهذه حالة، أبناؤنا كلهم تحت هذه الأنقاض وعلينا أن نبقى بينهم.

اقترحت عليها أن ابتلعها فإن في جوفي سترا ترضى به. ابتلعتها فلما سكن جوفي حامت فوقنا طائرات العدو، أسقطت علينا السقف ولم يبق مني سوى عينين ترى ما يحدث، فتحت فمي فخرجت منه فراشة جميلة ملوّنة.

حلقت فراشتي الجميلة قليلا بالقرب مني، ثم ابتعدت نحو الشارع. أخذت تخاطب الجنود الذين استبدت بهم شهوة الرقص، قالت لهم افرحوا كما تشاؤون، غير أن أنفاسنا التي تغلي تحت الأنقاض سوف تلاحقكم ولن تمرّوا، ثم لن تدخلوا الجنة.

المحتويات

م	المحتوى	الصفحة
١-	الإهداء	٣
٢-	التفاوض مع كلب عقور	٥
٣-	خال وأرنبة ووجه محكم الإغلاق	٩
٤-	ضوء في آخر نفق الزهايمر	١٥
٥-	تطورات مؤسفة في صالون حلاقة	٢٧
٦-	موت بدون عودة	٣٣
٧-	التورط في نجدة حمار	٣٧
٨-	مباااع.. مبااع	٤٣
٩-	مشاهد أبناء الجلدة	٤٧
١٠-	اللاصوق	٥١
١١-	تراب على وجوه قاحلة	٥٥
١٢	عشرون طريقة لاستراق السمع	٧١
١٣-	ثم لن تدخلوا الجنة	٧٥
١٤-	المحتويات	٧٩
١٥-	كتب للمؤلف	٨٠

كتب للمؤلف

أولا: في مجال القصة القصيرة

م	الكتاب	جهة الإصدار	تاريخ الإصدار
١-	المفازة	مطابع سحر - جدة	١٩٨٦
٢-	البرطأونات	نادي جازان الأدبي-جازان	٢٠١٤
٣-	الثوب الحنبصي	نادي الرياض الأدبي- الرياض	٢٠١٥
٤-	التئور	دار الغامدي للطباعة- بلجرشي	٢٠١٦
٥-	ثديها الذي	دار نجيب محفوظ- القاهرة	٢٠١٧
٦-	خان الخياطين	دار الغامدي- بلجرشي	٢٠١٧
٧-	النملة والسكر	المصرية للنشر والتوزيع- القاهرة	٢٠١٨
٨-	ألف ثيمة وثيمة	يسطرون للطباعة والنشر-القاهرة	٢٠١٨
٩-	الفاتحون (ق.ق.ج)	دار نجيب محفوظ- القاهرة	٢٠١٩
١٠-	رجل تدركه الأبصار	مؤسسة بن ربيع- الباحة	٢٠٢٠
١١-	منازلات الإمبراطور الأعمى	مؤسسة بن ربيع- الباحة	٢٠٢١
١٢-	ثم لن تدخلوا الجنة	مطبعة أحمد- القاهرة	٢٠٢٤

ثانيا: في مجال التراث المادي وغير المادي

١٣-	مفردات الموروث الشعبي في الباحة	مطابع الحرس الوطني- الرياض	١٩٨٩
١٤-	الزراعة التقليدية في الباحة	مطابع الحرس الوطني- الرياض	١٩٩٠
١٥-	ذاكرة الفواجع المنسية(أساطير وحكايات)	دار أروقة- القاهرة	٢٠١٢
١٦-	تقييد أوابد السخرية (الأدب الشعبي)	مؤسسة بن ربيع - الباحة	٢٠٢٢

ثالثا: في المسرح

١٧-	الرقص في الحُلكة (نصوص مونودراما)	مؤسسة بن ربيع - الباحة	٢٠٢٣
١٨-	مفاتن الأجربة ونصوص أخرى	مطبعة أحمد- القاهرة	٢٠٢٤

رابعا: في السيرة الشعبية

١٩-	تأملات في تسريد التاريخ	مؤسسة بن ربيع- الباحة	٢٠٢١

رقم الإيـداع: ١٨١٩٦ / ١٤٤٥
ردمك: ٠٠٠٠٩٨٠ - ٤٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨